

مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال ملاحظات المستشار

الفرنسي لوجي دو طاسي

**Algiers city in the Eighteenth century AD through the
observations of the French Chancellor, Laugier De
Tassy**

حفيظة خشمون ،

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة ،

hafidakhachmoun@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2024/05/29

تاريخ الاستلام: 2020/10/16

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على نموذج من الرحلات السياسية والدبلوماسية إلى الجزائر في القرن الثامن عشر. تتمثل في رحلة الدبلوماسي ومستشار القنصلية الفرنسية "لوجي دو طاسي" الذي قدم من خلالها مجموعة من الانطباعات والملاحظات تخص المجال والإنسان، طبعت ونشرت في كتابه المعروف "Histoire du Royaume d'Alger". يعد هذا التأليف أحد المصادر الأساسية التي يستحيل تجاوزها من قبل الباحثين، نظرا لما يحتويه من تجديد وثراء معرفي ومنهجي ونظرة منفتحة بخلاف النمطية التي كرّستها أدبيات الرحالة الأوروبيين خلال القرنين 16م و17م من أسرى ورجال دين وجواسيس... الخ، من خلال أعمالهم الوصفية العديدة التي ساهمت بشكل كبير في تعميم صورة الجزائر في الوعي الأوروبي.

بما أن مدينة الجزائر، باعتبارها عاصمة البلاد ومقر دار السلطان ومركز قوتها البحرية والبرية ، قد نالت الحظ الأوفر من الملاحظات والوصف في هذا التأليف الهام، فقد حاولنا من خلال قراءة في بعض نصوصه الكشف عن فوائدها الإخبارية فيما يتعلق بفضاء المدينة وساكنتها في القرن الثامن عشر.

الكلمات المفتاحية: مدينة الجزائر، الرحلات السياسية، لوجي دو طاسي، أبواب المدينة، الثكنات العسكرية.

Summary :

This research paper aims to shed light on a model of political and diplomatic trips to Algeria in the 18th century. It is represented in the trip of the diplomat Laugier De Tassy, during which he presented a set of impressions and notes concerning the space and the human being, published in his book "Histoire du Royaume d'Alger". We can classify This authorship as one of the primary sources, given its content of renewal, knowledge and methodological richness and an open view that transcended the stereotypes that were devoted to the literature of European travelers during the 16th and 17th centuries.

Since the city of Algiers, has won the most fortune from the notes and description in this authorship, we have tried through reading in some of his texts to reveal its news benefits in relation to the space of the city and its inhabitants in the eighteenth century.

Keywords: Algiers city; Political trips; Laugier De Tassy; City gates; Military barracks.

المؤلف المرسل: حفيظة خشمون . الإيميل: hafidakhachmoun@yahoo.fr

مقدمة:

لا ريب أن مذكرات وتقارير الرحالة الأوروبيين تمثل إحدى المصادر الأساسية لدراسة تاريخ الجزائر العثمانية. وهي وإن اختلفت في مضمونها، فهي تشكل في عمومها ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص والأفكار، بما تتضمنه من مادة دسمة ومشوقة لصور نقلتها عيون مختلفة كانت تنتقل، تتفحص وترصد ما يثير من المظاهر والظواهر.

على الرغم من خصوصية هذا النوع من الكتابة وافتقاره أغلبيته للإطار المنهجي؛ على اعتبار أنه مزيج من السيرة الذاتية والحكاية الروائية والأحداث التاريخية والإفادات الجغرافية والملاحظات الميدانية التي لا تخلو أغلبيتها من النظرة الذاتية، إلا أنه يستحيل تجاوزه من قبل الباحثين، نظرا لما يتيح من مادة غزيرة وخصبة خاصة فيما يتعلق بتاريخ الفضاء الجزائري وساكنته خلال الحقبة العثمانية التي طالما وصفت بالفترة الغامضة.

في ظل ما تعانيه هذه الحقبة من شح الكتابات المحلية، بات الاعتماد على مثل هذه المؤلفات الأجنبية الشاهدة على الفترة أمرا ضروريا من أجل استثمارها في الكشف عن الكثير من قضايا وإشكاليات تاريخ الجزائر الحديث. في هذا السياق، يبرز المستشار والدبلوماسي الفرنسي لوجي دو طاسي كنموذج عن أهم الرحالة السياسيين الفرنسيين الذين زاروا المنطقة خلال القرن 18م وخلفوا تراثا أدبيا وإستوغرافيا هاما ساهم في التأريخ للجزائر العثمانية. كل ذلك بفضل ملاحظاته الثرية والمتنوعة التي جمعها في كتابه الهام "تاريخ مملكة الجزائر" الذي قدم من خلاله صورة للمنطقة، انطلاقا من مشاهداته وتفاعلاته مع نماذج من الحياة اليومية خاصة بمدينة الجزائر. فكيف تبدو هذه المدينة وفضاءاتها من خلال نصوص كتابه "Histoire du Royaume d'Alger" ؟

نحاول في هذه الورقة البحثية استجلاء مختلف الصور التي رسمها عن المدينة وضواحيها لمعرفة إلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذا النوع من

الملاحظات والإفادات في رسم صورة واضحة المعالم عن مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر، بالإعتماد على القراءة المتأنية والواعية لمحتوى الكتاب واستخراج مختلف نصوصه حول هذا الموضوع واستنطاقها ومحاولة مقارنة بعض معطياتها بنصوص أخرى مع مراعاة بعض الاعتبارات المنهجية التي تقتضيها مثل هذه الدراسات.

أولا. لوجي دو طاسي وكتابه "تاريخ مملكة الجزائر":

1. التعريف بلوجي دو طاسي:

قليلة هي الدراسات التي تناولت لوجي دو طاسي كشخصية مؤثرة في الوسط السياسي، الأدبي والتاريخي، وهي في عمومها لا تفصح إلا عن معلومات شحيحة حول سيرته ومساره المهني، لعل أهمها على الإطلاق الترجمة القصيرة التي نشرها المستشرق الفرنسي "دوفو" Devoulx في كشفه حول أهم الشخصيات الفرنسية التي أقامت بالجزائر فيما بين 1686 و1830¹. بالإضافة إلى شذرات متناثرة في بعض النصوص والدراسات الغربية والمحلية التي تسلط الضوء على فلسفته وأفكاره عكس حياته الشخصية والعملية، على رأسها دراسة الباحثة الفرنسية "Denise Brahimi" الموسومة بـ "Laugier De Tassy et sa préface à l'Histoire de Royaume d'Alger" ومقال "كمال فيلاي" المنشور تحت عنوان: "Les Voyageurs Religieux dans le regard de Laugier De Tassy, en mission à Alger (1725)"³.

J. F. Laugier de Tassy "جاك فيليب لوجي دو طاسي" رحالة ورجل سياسي فرنسي، عاش فيما بين القرنين 17م و18م⁴، سجن خلال 1706م ياسبانيا⁵، قدم إلى الجزائر بصفته مستشارا بالقنصلية الفرنسية ابتداء من 1718م وكان وجوده بها لفترات متقطعة إلى غاية 1724م⁶، تاريخ انتقاله إلى أمستردام الهولندية أين تقلد منصب مستشار ومندوب البحرية ممثلا عن ملك الفرنسي لويس الخامس عشر⁷ وبقي بها إلى غاية وفاته بتاريخ 14 سبتمبر

1748م⁸. هناك نشر مؤلفه الوحيد Histoire du Royaume d'Alger سنة 1725م⁹، جمع فيه ملاحظاته وانطباعاته حول المنطقة.

2. كتابه "Histoire du Royaume d'Alger":

طبع الكتاب ونشر لأول مرة بأمستردام سنة 1725م تحت عنوان: Histoire du Royaume d'Alger, avec l'état présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer, de ses revenus, politique, et commerce police, justice, يدلّ عنوانه على أنّه دراسة مفصّلة حول الجزائر وتاريخها؛ نظامها الاقتصاديّ، السّياسي والعسكري وكذا تنظيمها الاجتماعي والمؤسّساتي.

منذ صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة 1725م وإلى غاية 1830م، تم تداول أفكاره على نطاق واسع بإعادة طبعه أو ترجمته وامتد الأمر إلى انتقال أفكاره¹⁰ فصدر في أوربا بعناوين مختلفة وظهر محتواه بلغات عدة (الإسبانية، الإنجليزية والإيطالية)، ناهيك عن صدور عدّة طبعات منه باللغة الفرنسيّة¹¹. لا شك أن ذلك يعكس قيمته العلمية وأهميته التاريخية، ولعل أكثر الطبعات تداولاً بين الباحثين تلك الصادرة في باريس سنة 1992م وهي التي اعتمدنا عليها في هذه الورقة.

على خلاف ما تميزت به تقارير الرحالة الأوروبيين التي يطغى عليها عموماً الطابع السردي الروائي، انفرد كتاب لوجي دو طاسي بمنهجية جديدة في العرض حيث يتكون بعد مقدّمة مطوّلة، من قسمين أو كتابين لينتهي بانطباعات ختامية في غاية الأهمية؛ يتعلّق الكتاب الأوّل بمملكة الجزائر ويضمّ إحدى عشر فصلاً أمّا الثاني، فيتناول مدينة الجزائر في عشرين فصلاً. تضمنت كلها تفاصيل تخصّ البلاد، السّياسة، الاقتصاد والمجتمع. تناول المؤلّف أحداثاً كان شاهداً عليها كما ساق شهادات جمعها من المناطق التي زارها أو مرّ بها مؤكداً بذلك رغبته الملحة في إبراز الحقيقة ونبد الأحكام المسبقة التي نسجت دعائيات القساوسة وأدبيات رجال الدّين. كأنّه تولّى مهمّة التعريف بواقع

البلاد وسكانها حيث اعتبرها مجهولة بالنسبة للأوروبيين على الرغم من القرب الجغرافي في هذه العبارات: "نتحدث عن الجزائريين ولكن معرفتنا لهم أقل من معرفتنا للأمم الأكثر بعدا وانعزالا عن قارتنا"¹². هذا ما يعكسه محتوى الكتاب الذي يرسم صورا بمختلف المعالم عن المنطقة ننتقي منها ما تعلق بمدينة الجزائر وضواحيها.

ثانيا. مدينة الجزائر بعيون لوجي دو طاسي:

1. موقع المدينة ومكانتها التاريخية:

أشاد لوجي دو طاسي بالموقع الجيد لمدينة الجزائر، فهي تقع على 36 درجة و30 دقيقة طولاً وتمتد على ساحل المتوسط بين تنس وبجاية، فتبدو - حسب - في شكل سفينة شراعية ناصعة البياض. من جهة أخرى أكد الرحالة على مكانتها السياسية والعسكرية خلال تلك الفترة، أين أصبحت تمثل عاصمة الدولة، تتمظهر بها رموز السلطة السياسية وقوتها العسكرية البرية والبحرية¹³.

ذكر الرحالة أن العرب المسلمون هم الذين أطلقوا اسم "الجزائر"¹⁴ على المدينة إلا أنه ربط الخراب الذي لحق بها بدخولهم إلى المنطقة¹⁵ وهو ما يناقض ما ذهب إليه الإسباني مارمول كاربخال، الذي ورغم ما عرف عنه من تعصب، إلا أنه أكد ارتباط هذا الخراب بأعمال الوندال وسياستهم بالمنطقة¹⁶.

2. عمران مدينة الجزائر:

أبواب المدينة وحصونها:

تبدو مدينة الجزائر في نصوص لوجي دو طاسي وكأنها بناء مغلق ومحصن يصعب اختراقه، يتضح ذلك من خلال وصفه لأبوابها الخمسة وأهم الحصون والأبراج التي تتوزع بها من مختلف الجهات، حيث حرص على تحديد موقع هذه المعالم مع ذكر ما يميز كل منها على هذا النحو:

باب البحر: تقع في الجهة الشرقيّة للمدينة، علقت بها خمسة أجراس جلبت من وهران عند تحريرها الأول من الاحتلال الإسباني سنة 1708م احتفالاً بالحدث.

باب الجزيرة: تقع إلى ناحية الجنوب قليلا من باب البحر، تشكل منفذا يؤدي إلى الميناء كما توجد بداخلها ورشة لصناعة السفن البحرية. باب عزون: تتوضع في الوسط، أسوارها مزودة بالمتاريس أو المسنّات الحديدية أين يعلق المذنبين والمتمردين.

باب الجديد: تقع في الجنوب الشرقي وتؤدي إلى قصر الإمبراطور. باب الواد: في الشمال وتقع خارجها مقبرة المسيحيين وأماكن خاصة لعقاب المخالفين من اليهود والمسيحيين¹⁷.

حصن الإمبراطور¹⁸: أهم حصون المدينة، شيد على جبل بجنوب الجهة الجنوبية الغربية للمدينة.

حصن قصر النجمة أو الحصن الجديد: أسس على إحدى الروابي جنوب غربي المدينة في القرن 16م من طرف حسن باشا، تهدمت أجزاء منه بسبب هجومات الحامية الإسبانية وقد حرص حكام الجزائر على ترميمه عدة مرات. حصن باب عزون وحصن باب الواد: أقل أهمية من الحصون السابقة وهما حصنان متقابلان بالقرب من البابين المذكورين.

حصن الإنجليز وحصن رأس بيسكاد: حصنان صغيران. يقع الأول على بعد نصف فرسخ من المدينة، يضم اثني عشر مدفعية أما الثاني فيقع على بعد نصف فرسخ من الأول وهو مزود بأربع قطع مدفعية وقد سمي بهذا الاسم لأن الصيادين كانوا يقومون بنشاطهم أسفل ذلك الرأس.

برج الفنار: به ثلاث سريات مدفعية ومزود بمنار لإرشاد السفن البحرية خلال الليل والتي عادة ما تتراكم عند رسوها بالميناء حيث تستعمل الحبال لشدها خاصة خلال الشتاء لمنع تحطمها بفعل قوة الارتطام أثناء هبوب الرياح¹⁹.

شوارع المدينة:

أبدى لوجي دو طاسي انزعاجه من الحالة المزريّة لشوارع مدينة الجزائر الضيّقة في هذه العبارات: "إذا ما استثنينا شارع واحد يمتدّ من شرق المدينة إلى غربها أين تتوزّع محلات التجار الرئيسيين، فإنّ باقي الشوارع عبارة عن أزقة ضيّقة لدرجة أنّه لا يمكن لشخصين المرور بها دون التلامس. وهي منخفضة من الوسط ونتنة جدّا بسبب مرور عدد من الجمال والأحصنة، البغال والأحمرّة المحمّلة بالأمتعة"²⁰.

أكد الرّحالة على دور الزّلازل كعامل أساسيّ تسبب في ضيق شوارع مدينة الجزائر مشيرا إلى زلزال 1717م²¹ العنيف الذي تسبّب في تهديم البنايات وتشقّق الطّرق وإخلاء المدينة بكاملها باستثناء الدّاي وحاشيته وضباط الدّولة²². وهو بذلك يخالف غيره من الرحالة الذين أكدوا أن السبب في ذلك يعود إلى تقارب البنايات لتفادي أشعة الشّمس، حيث يقول الرحالة الفرنسي بايسونال الذي زار الجزائر في نفس الفترة تقريبا (1725م): "لا يتركّون مساحات كافية بين البنايات فتلك عاداتهم في البناء"²³.

المنازل والدور:

أولى هذا الرحالة عناية بالغة بوصف الهندسة المعمارية التي تتميز بها منازل مدينة الجزائر؛ فهي في عمومها مبنية من الحجارة والأجر، يوجد في وسطها فناء كبير مبلط مربع الشكل، توجد حوله مقصورات galleries أين تتوزع الشقق السفلى، أما المقصورات العلوية فتتربع بواسطة أعمدة. أبواب الغرف غير مرتفعة بالشكل الكافي وعادة ما يلامسها طويل القامة عند دخوله فيضطر إلى الإنحاء. تستعمل أسطح المنازل للجلوس في وقت الفراغ لتجاذب أطراف الحديث كما يخصص بها مكان لتجفيف الملابس بتعريضها لأشعة الشمس. يخيم الظلام على الغرف حيث أنها لا تستقبل النور إلا من خلال الفناء الداخلي ولا تطل على الشارع إلا عبر نوافذ صغيرة بها شبابيك. يحرص

السكان على طلاء منازلهم وأسطحها باللون الأبيض. وهي متداخلة لدرجة أنه يمكن التجول في كل المدينة بالانتقال من سطح إلى آخر مع استخدام بعض السلالم للصعود أو النزول حيث لا توجد ساحات ولا حدائق داخل المدينة²⁴.
 مَيَز الرحالة بين منازل الباشاوات والدايات ومنازل العامة حيث تختلف الأولى كثيرا من حيث طرازها المعماري ، وهي كثيرة بالمدينة، تنفرد بجمالها لأنها مرصعة بالرخام من أعلاها إلى أسفلها وجدرانها منحوتة ومصبوغة ومذهبة²⁵.
الفضاءات الدينية والتعليمية:

تعتبر المراكز الدينية والتعليمية من الأماكن الخاصة التي تميز المدن الإسلامية وعادة ما تثير انتباه الزائر الأجنبي، قدّم لوجي دو طاسي بعض المعطيات الإحصائية بشأنها فأشار بأنه شاهد بالمدينة عشرة مساجد كبرى وخمسين مسجدا صغيرا وثلاثين مدرسة كبيرة لتعليم الأطفال²⁶.
 في موضع آخر وبخصوص طرق التعليم في الجزائر، ذكر لوجي دو طاسي أن الأطفال كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في وقت واحد حيث يعيدون كتابة الحروف بالريشة وفي الوقت نفسه يتعلّمون أصوات هذه الحروف بالتكرار إلى أن يتمكّنوا من إتقانها". من جهة أخرى، أشار إلى صرامة المعلمين مع المقصّرين في أداء واجباتهم، حيث يعاقب المعلم تلميذه باستعمال ضربات الفلقة (أسفل القدمين) بواسطة مسطرة خشبيّة حيث تكون الضربات عادة معادلة لعدد الأخطاء والواجبات غير المنجزة²⁷.

سجون الأسرى المسيحيين:

بلغّة الأرقام، تحدث لوجي دو طاسي عن السّجون التي كانت تأوي أسرى البايك أو الحكومة حيث ذكر بأنّ عددها خمسة (05)، وهي واسعة يديرها الحاكم الرّئيس الذي يشرف على عمل الضّبّاط يسمّى ²⁸gardien bachi، كما يوجد bachi-gardien-bachi يسهر على مبيت الأسرى وعودتهم إلى السّجون وتسريحهم للعمل اليوميّ في البحر وغيرها من الأعمال، يقدّم تقريراً

يوميًا للدّاي بخصوص ما وقع في السّجون. يتولّى هذا المنصب عادة أحد قدامى رياس البحر²⁹.

من جهة أخرى، أشار إلى الملاحى والخمارات التي كانت متواجدة على مستوى سجون الأسرى المسيحيين نافيا وجود مثل هذه المراكز بأي مكان آخر بمدينة الجزائر وكلّ المدن الجزائرية لعدم فائدتها حيث لا يقصدها إلا أقلية من الغرباء³⁰.

لم يخض الرحالة في خصوصيات حياة الأسرى المسيحيين داخل هذه السجون وإبراز جانب المعاناة فيها كما درجت عليه مختلف الأدبيات الأوروبية، بل انتقد بشدة أسلوب الترمويه الذي كان رجال الدين مفتديي الأسرى يلجؤون إليه لكسب عطف وسخاء الناس أثناء جمع أموال الفداء. أما بخصوص معاملة الأسرى في الجزائر، فقد أشاد بالتسامح الكبير الذي يتمتعون به مقابل نظرائهم في الضفة الشمالية للمتوسط ضارباً المثل بتجربته الشخصية بسجون إسبانيا في هذه العبارات: "مقارنة بمعاملة الإسبان للجزائريين عندما احتلوا وهران، فالجزائريون يرأفون كثيراً بأسراهم ... كنت سجيناً بإسبانيا سنة 1706م، وقد عوملت بقسوة شديدة مجردة من كلّ معاني الإنسانية وهو ما يجعلني أفضل قضاء عشر سنوات عبودية بالجزائر على سنة واحدة بسجون إسبانيا"³¹.

الثكنات العسكرية:

استناداً إلى إفادات لوجي دو طاسي، يوجد خمس ثكنات عسكريّة لإقامة الجنود العزّاب بمدينة الجزائر وقد تأسست كلها سنة 1650م. يقيم في كلّ واحدة منها 600 جندي بمعدل ثلاثة جنود في كلّ غرفة. توجد في فناء كلّ ثكنة عيون للغسيل والوضوء³².

بالإضافة إلى أنه لم يحدد موقع الثكنات وتوزعها في المدينة، تبدو هذه الإحصائيات التي قدمها لوجي دو طاسي بخصوصها غير منطقية بالنظر إلى ما

تكشف عنه أهم المصادر والدراسات حول الموضوع، حيث نجد أن القس الإسباني "هايدو" قد أحصى قبله بحوالي قرن ونصف من الزمان (كان بالجزائر من 1578 إلى 1581م) خمس ثكنات كبيرة، تضم كل واحدة ما بين 400 إلى 500 جندي، إلى جانب ثكنتين صغيرتين تستوعب كل واحدة منهما ما بين 200 إلى 300 رجل³³. هذا وأكد كل من "Berbrugger" و "Devoulx" أنه في سنة 1830 كان يوجد بمدينة الجزائر سبع ثكنات استنادا إلى وثائق archives³⁴ arabes du domaine وتشير الدراسة التي أجراها "J.Deny" بالاعتماد على سجل أجور الإنكشارية إلى ثماني (8) ثكنات³⁵. (أنظر الجدول):

الجدول 1: ثكنات مدينة الجزائر خلال العهد العثماني

المصدر: تم إنجاز الجدول اعتمادا على المعطيات الواردة في:

- Berbrugger (A), Devoulx (A), Les casernes de janissaires à Alger, R.A, 1858, p p 132-138.

- Deny Jean, Les Registres de soldes des janissaires conservés à la BNA, R.A, 1920, p p 217-221.

- حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى،

عين مليلة الجزائر، 2007، ص ص 29-34.

اسم الثكنة	تأسيسها	عدد الغرف	عدد الجند
ثكنة باب عزون ثكنة (دار الإنكشارية)	1548م	28	1661
ثكنة المكررين	حوالي 1603م	27	899
ثكنة صالح باشا	1599م- 1600م	26	1266
ثكنة علي باشا (تشكل مع ثكنة صالح باشا ثكنة ماعرف بثكنة الخراطين)	-	24	1516
ثكنة أوسطى موسى	1674م- 1675م	31	1433
ثكنة بالي (ثكنة القناصل أو ثكنة الدروج)	-	15	602
ثكنة أسكي أي القديمة (الفوقانية)	1627م	31	1089

231	19	-	ثكنة بني أي الجديدة (السفلانية)
-----	----	---	---------------------------------

تحليل النتائج:

تكشف معطيات الجدول أن ثكنات الإنكشارية بالجزائر تتباين فيما بينها من حيث سنة التأسيس؛ فالإلى غاية 1627م تأسست على الأقل أربع إلى خمس ثكنات وإذا أضفنا إليها الثكنات الخمس التي زعم لوجي دو طاسي أنها تأسست كلها سنة 1650م، سيرتفع العدد الإجمالي إلى تسع أو عشر ثكنات وهو ما يتعارض مع معطيات الوثائق الرسمية المشار إليها. من جهة أخرى، توضح أرقام الجدول أن هذه المراكز لا تتباين فيما بينها من حيث تاريخ التأسيس فقط بل من حيث عدد الجنود المقيمين بكل ثكنة؛ فلكل منها طاقة استيعاب تختلف عن الأخرى ترتبط بالمساحة وعدد الغرف. ومن تم يمكن القول أن المعطيات التي قدمها لوجي دو طاسي في هذا المجال ليست دقيقة.

الفنادق:

لم يقدم الرحالة أرقاما بعدد هذه المرافق حيث اكتفى فقط بوصفها بالتركيز على أهميتها بالنسبة لبعض الفئات المقيمة بمدينة الجزائر في هذه العبارات: "هي مباني ضخمة تدعى fundus أو alberges باللغة الفرنكية³⁶، بها ساحات وبعض المتاجر وغرف للنوم والإقامة يمتلكها بعض الخواص. يقصدها التجار الأتراك ويقيم بها بعض الجنود الذين لا يرغبون في العيش داخل الثكنات ويكون ذلك على حسابهم الخاص"³⁷.

الحمامات:

أثارت ظاهرة الاستحمام انتباه الرحالة حيث أشار إلى انتشار عدد كبير من الحمامات الصغيرة والكبيرة بمدينة الجزائر، يقصدها المسلمون بكثرة للاغتسال قبل أدائهم للصلاة. لقد أثارت هذه المراكز فضوله لمعرفة خباياها من الداخل حيث كانت له فرصة لاكتشافها بمعية القنصل الفرنسي Baume والترجمان إبراهيم خوجة، لهذا فقد تمكّن من تقديم وصف دقيق لغرف

الحمام وقاعات الملابس وطريقة الاستحمام مبديا استغرابه خاصّة من طريقة الدّلك العنيفة التي تدوم حوالي نصف ساعة من طرف الزّوج الذين يمتنون هذا العمل.

أشار الرّحالة أيضا إلى وجود حمّامات خاصّة بالنّساء لا يدخلها الرّجال، تقوم الرّقيقات بذلكهنّ، ورغم ذلك كان يتسلل إليها في بعض الأحيان أفراد من الأسرى الشّباب المهوورين، متنكرين في زيّ نسويّ إرضاء لغرائزهم ونزواتهم³⁸.
ثالثا. ساكنة مدينة الجزائر حسب إحصائيات لوجي دو طاسي:

لم تقتصر اهتمامات المستشار والدبلوماسي لوجي دو طاسي على مشاهدة المعمار والمعالم الحضارية، بل اقترن ذلك بالاحتكاك بالسّاكنة التي تعجّ بها فضاءات المدينة. لهذا، فقد ساق بعض المعطيات الإحصائية بشأنها حيث قدر مجموع القاطنين بمدينة الجزائر بمائة ألف (100000) ساكن بما فيهم خمسة آلاف (5000) عائلة يهوديّة أصليّة بالبلاد، هذا دون احتساب الأعداد الكبيرة التي تخصّ المسيحيّين.

على غرار الإحصائيات التي تنطق بها مختلف المصادر الأجنبية وحتى المحلية التي تعود لهذه الفترة، فما قدمه لوجي دو طاسي يعتبر مجرد معطيات تقريبية ناتجة عن ملاحظات عينيّة لا يمكن أن تكون واقعية أو دقيقة، على اعتبار أن أغلب النساء محتجبات في البيوت بعيدا عن الأنظار والإحصاء. لذا تبقى كل الأرقام المقدمة بهذا الشأن في مختلف النصوص متضاربة وغير منطقية أحيانا حيث نجد "فونتير دو بارادي" مثلا، قد قدرهم بخمسين ألف (50 ألف) نسمة في أواخر القرن 18م³⁹.

فيما يخصّ فئات المجتمع الحضري بالمدينة، تجدر الإشارة إلى أن الرحالة ساق معلومات غزيرة بشأنها في القسم الأول من الكتاب في إطار حديثه عن سكان البلاد أو كما سماها المملكة لا يسعنا الحديث عنها في هذه الورقة. تكشف هذه المعلومات في مجملها عن التباين العرقي والديني كما تؤكد انفتاح

المدينة على العنصر الوافد، حيث يتكون المجتمع بالإضافة إلى العنصر المحلي، من الأتراك الأصليين، الكراغلة، الأعلاج، الأندلسيين، اليهود، المسيحيين (خاصة الأسرى) والعبيد الزنوج.

لقد قدّم إفادات غزيرة بشأن كل فئة تخص وضعها الاجتماعي مع الحديث عن بعض عادات الأكل واللباس والطقوس الدينية، ناهيك عن علاقة هذه الفئات بالسلطة الحاكمة. في هذا السياق، حرص دو طاسي على الإشادة بالتسامح الكبير الذي تحظى به الأقليات الدينية مؤكداً تمتعهم بحرية المعتقد سواء بالنسبة لليهود أو المسيحيين حيث ساق تفاصيل كثيرة نقل من خلالها صورة مغايرة حول ما كان يعرف ببلاد البارباراسك⁴⁰ في المخيلة الأوروبية.

رابعاً. ضواحي المدينة وأريافها:

بعد وصف المدينة، انتقل دو طاسي إلى ضواحيها حيث وصف ما يميز مجالها الطبيعي والبشري والعمراني من ذلك:

الأرياف: أبدى لوجي دو طاسي إعجاباً كبيراً بجمال الريف الجزائري وخصوبته حيث أنه يزخر بأنواع الحبوب والخضر والفواكه والأزهار، ما يضفي عليه ألواناً زاهية ومنظراً أخاذاً وخضرة دائمة بفضل تربته الرطبة "يوجد على بعد حوالي أربعة فراسخ من المدينة فضاء سهليّ تحيط به الجبال، يضمّ حوالي عشرين ألف حديقة أو ريف يتميز أغلبها بانتشار أكواخ ريفية صنعت من أغصان الأشجار"⁴¹. هنالك من الجانب الشرقي لهذه الجبال يمتد سهل متيجة الذي يتميز بتربته الرطبة والخصبة حيث تتم زراعتها مرتين إلى ثلاث مرات في السنة بمختلف المحاصيل والمنتجات خاصة القمح والشعير والشوفان والخضروات.⁴²

لاحظ لوجي دو طاسي أنّ أغلب الأملاك والحقول الريفية كانت محمية بسيّاح طبيعيّ حيث يحيط بها التين الشوكيّ المسمى (تين بلاد البربر) الذي كان يستخدم للريّة ولتقوية التربة بفضل جذوره القويّة الممتدة بعمق حيث يشكّل

جدارا يصعب اختراقه بسبب الأشواك التي تحفّ بالأوراق وحتى بالثمار فيضفي منظرا جميلا على هذه الأرياف بلونه الدائم الخضرة⁴³.

من جهة أخرى، نوّه لوجي دو طاسي بجمال المنازل الريفية المنتشرة بانتظام في الضواحي مشيرا إلى أنها قد بنيت على شاكلة منازل المدينة وتختلف عن تلك الأكواخ المنتشرة داخل الأرياف البعيدة والمعزولة⁴⁴. لقد اعتبر أن المنازل الريفية التي يمتلكها القناصل الأجانب هي الأكثر جمالا وتميزا لاعتنائهم بها واصفا بإعجاب شديد منزل القنصل الفرنسي M. Durand de Bonnel الذي كان مزينا بالأشجار الطيبة التي تشكّل أسرة مريحة وغرفا ظليلة مع وجود بئر مائي عميق مليء بالمياه العذبة⁴⁵ حيث يوفّر هذا المكان جوا منعشا "خلال الصيف تعلّق سلّة مملوءة من زجاجات الخمر تتدلى قبل نصف ساعة من تناولها لتأخذ طعما باردا ومنعشا. كما توجد أسرة للاستراحة بين الأشجار الكثيفة ممّا يوفّر نوما هادئا رغم ارتفاع درجة حرارة الجو"⁴⁶.

المقابر: أشار الرحالة باندهاش إلى الانتشار الكبير للمقابر خاصة خارج الأبواب وقد ميّز بين: أضرحة الحكّام من الباشاوات والدّايّات التي تقع خارج باب الواد المتميزة بعلوها وبقبابها الناصعة البياض وقبور الأغوات والضباط التي تتميز برمح مغروس قرب التّابوت، أما قبور رياس البحر فعادة ما تعلوها عصا أو تفّاحة ذهبية⁴⁷. وعلى العكس من ذلك، تبدو قبور العامّة بسيطة حيث لا تميّزها سوى حجارة مسطّحة مغروسة في التّربة تحدّد شكل التّابوت⁴⁸.

المزارات: تنتشر خارج أبواب مدينة الجزائر بعض المعابد الخاصة بالمرابطين⁴⁹ وهي تحظى بقداسة كبيرة خاصّة من طرف النّسوة اللّواتي يترددن عليها للتبرّك بها في يوم الجمعة⁵⁰.

الهوارج: أعجب الرحالة بمنظر تنقل النساء المتميزات على متن الأحصنة والبغال التي تحمل خياما مربعة الشكل وكأنّها كرسي مقلوب محاط بقطعة من

القماش حيث تجلس كل واحدة داخل هذا الهودج ويقوم أحد الأسرى بقيادة الحصان أو البغل بواسطة اللجام⁵¹. في منظر يوحى بالأبهة والجمال.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم، يمكن القول أن لوجي دوطاسي قد تمكن عبر هذه الإفادات النصية والإحصائية من رسم صورة لمدينة الجزائر وضواحيها بأهم ما يميزها من معالم وخصائص، معتمدا في رصد ملاحظاته على المشاهدة والاحتكاك بالمجتمع. نستشف ذلك من خلال استخدامه كلمات: (نشاهد، نلاحظ، يوجد ، ... إلخ) . هذا لا ينفي طبعاً توظيفه لمعارفه المسبقة حول المنطقة حيث نجده في مقدمة كتابه يشيد بكتابات سابقيه من المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب والأجانب. لقد أشار إلى كتابات كل من "ابن الرقيق"، "جون باتيست غرامي"، "مارمول كاربخال"، "دافيتي"، "الوزان (ليون الإفريقي)"، "هايدو" و"دابر"⁵². فلا يستبعد بأنه قد أخذ عن بعض هذه المصادر.

تكشف مختلف التفاصيل والملاحظات التي ساقها لوجي دوطاسي عن المنطقة حرصاً الشديداً على استجلاء معالم تاريخها وحضارتها على الرغم مما يشوب بعض هذه الملاحظات من قصور وخلط وتداخل كما لاحظنا، خاصة فيما يتعلق بالمعطيات الرقمية التي سجلت حضوراً قوياً في نصوصه، ناهيك عن تجاوزه الحديث عن بعض الفضاءات التي تمثل الجانب الحيوي بالمدينة على غرار الدكاكين والأسواق... إلخ مكتفياً بإشارات مقتضبة مما يستدعي العودة إلى مصادر أخرى .

مثل كتاب لوجي دوطاسي وما ورد فيه من معلومات مرجعاً أساسياً للرحالة الأوروبيين وخاصة الفرنسيين الذين زاروها خلال القرن 18م، فالصورة التي قدمها حول مدينة الجزائر وضواحيها تتكرر بكل تقاسيمها تقريباً في نصوص رحلة مواطنه ج.أ. بايسونال سنة 1725م⁵³.

في الأخير، يمكن القول أن أهمية هذا التأليف لا تقتصر فقط على ما يحمله من إفادات إخبارية متعددة ومتنوعة، وإنما في ما أبداه صاحبه من رغبة واضحة في إعادة النظر حول الأحكام المسبقة التي كرستها أدبيات القرن 16 و17م حول الجزائر، مما يجعله حقا جديرا بالقراءة والإهتمام أكثر من قبل الباحثين واستثماره في الدراسات التاريخية وحتى الفلسفية، الأنثروبولوجية والأثرية.

الهوامش:

¹ Devoulx Albert, (1872), Relevé des principaux Français qui ont résidé à Alger de 1686 à 1830, **R.A**, 1872, p 367.

² Brahimi Denise (1970), Laugier De Tassy et sa préface à l'Histoire de Royaume d'Alger, R.H.C.M, faculté des lettres d'Alger, N°: 8, janvier, 1970, p p 74-81.

³ Filali Kamel (2005), Les Voyageurs Religieux dans le regard de Laugier De Tassy, en mission à Alger (1725), Revue Emigrations et Voyages, Université Mentouri- Constantine, V1, avril, (2005), p p 21-32.

⁴ الشيخ لكحل، المصار الغربية لتاريخ المغرب في العصر الحديث، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع11، سبتمبر 2014م، ص 243.

⁵ Tassy (Laugier de) (1992) , Histoire du Royaume d'Alger, Préface Noël Laveau et André Nouschi, Editions Loysel, Paris, p 194.

⁶ Devoulx Albert, op. cit, p 367.

- Brahimi Denise (1978), Opinions et regards des Européens sur le Maghreb aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècle, SNED, Alger, p 121.

⁷ Filali (Kamel), op. cit, p 25.

⁸ Brahimi Denise, Laugier De Tassy et..., op. cit, p 75.

⁹ Michaud (1854), Biographie universelle ancienne et moderne, Nouvelle éditions, Paris, p 347.

¹⁰ Turbet-Delof Gey (1973), l'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI^{ème} et XVII^{ème} siècle, librairie DROZ , Genève, p 228.

¹¹ Société de gens de lettres (1822), Dictionnaire Historique critique et bibliographique, T15, Paris, p 432.

¹² Tassy (Laugier de), op. cit, p 9.

¹³ Ibid, p 99.

¹⁴ تعني باللغة العربية الجزيرة لوجود جزيرة أمامها تسكنها قبائل بني مزغنة ولهذا سمّاها العرب

حوالي القرن 7م "جزائر بني مزغنة". أنظر: ابن المفيّ رجب بن شاوش، تقييداته في تاريخ

باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق فارس كعوان، بيت الحكمة، ط1، 2009م، ص 75.

¹⁵ Tassy (Laugier de), op. cit, p 99.

¹⁶ كربيخال مارمول، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1984م، ج2، ص 363.

¹⁷ Tassy (Laugier de), op. cit, p p 101-102.

¹⁸ يقصد به الإمبراطور شارلكان الإسباني الذي عسكر بهذا الموقع في حملته على مدينة الجزائر

عام 1541م، يعرف أيضا ببرج الطّاووس وبرج مولاي حسن. يقع أعلى المدينة، يعود إنشاؤه إلى ما

بعد تلك الحملة، شيّده حسن بن خير الدين سنة 1543م وطوّر تحصيناته حسن فنزيانو سنة

1656م حيث زوّده بستة وخمسين مدفعا، تعرّض أثناء الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر 1830م

للتدمير بفعل انفجار مخزن البارود الموجود به. أنظر:

Belhamissy Moulay (1990), Alger la ville de mille canons, Entreprise nationale du livre, Alger, p 27.

¹⁹ Tassy (Laugier de), op. cit, p p 102-104.

²⁰ Ibid, p p 99-100.

²¹ أُنخ ابن المفيّ لهذه الكارثة الزلزالية وما خلفته من دمار وخراب على المدينة حيث أكّد بأنّ

ارتجاج الأرض قد تتابع خلال عشرين يوما دون انقطاع منذ تاريخ حدوثها 9 صفر 1128هـ. (يوافق

تاريخ 2 فيفري 1716م وليس 1717م كما ذهب إليه دو طاسي). أنظر: ابن المفيّ، مصدر سابق،

ص ص 77-78.

²² Tassy (Laugier de), op. cit, p 100.

²³ Peyssonnel (J.A) (1987), Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, présenté par Lucette Valensi, Editions la Découverte , Paris, p p 250-251.

²⁴ Tassy (Laugier de), op. cit, p104.

²⁵ Ibid, p 105.

²⁶ Ibid, p104.

²⁷ Ibid, p 79.

²⁸ Ibid, p 104

²⁹ Ibid, p 144.

³⁰ Ibid, p p 105-106.

³¹ Ibid, p 194.

³² Ibid, p 105.

³³ Haedo (F.D. de) (1870), Topographie et histoire générale d'Alger", traduction de Monnereau et A. Berbrugger, R A, n: 14, 1870 , p 394.

³⁴ Berbrugger(A) et Devoulx (A) (1858), Les casernes de janissaires à Alger, R.A, 1858, p 132.

³⁵ Deny Jean (1920), Les Registres de soldes des janissaires conservés à la BNA, R.A, 1920, p p 217-221.

³⁶ Linga franca: اللغة الفرنكية هي مزيج من الكلمات البرتغالية، الإيطالية والفرنسية وخاصة الإسبانية، استعملت للتخاطب والتعامل التجاري بين شعوب البحر المتوسط وبين فئات المجتمع الحضري في الجزائر خلال العهد العثماني. أنظر:

وولف جون. ب، الجزائر وأوروبا 1500م-1830م، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص 172.

³⁷ Tassy (Laugier de), op. cit, p 105.

³⁸ Ibid, p p 106-108.

³⁹ Venture de Paradis (J.M) (2006), Alger au XVIII^e siècle, présentation et notes par Abderrahmane Rebahi, G.A.L Editions, Alger, p 19.

⁴⁰ هذا اللقب الذي نعت به سكان شمال إفريقيا كان يستخدم بكثرة حتى في المراسلات الرسمية فيما بين القرنين 15م و17م وهو يعبر بوضوح عن تصوّر سيء في المخيلة المسيحية الأوروبية، كرسه دعاة الصليبية في محاولة لتجريدتهم من أي صلة أو علاقة بالحضارة الإنسانية. أنظر:

Filali Kamel, op. cit, p 30.

⁴¹ Tassy (Laugier de), op. cit, p 123.

⁴² Ibid, p 124.

⁴³ Ibid, p 125.

⁴⁴ Ibid, p 124.

⁴⁵ Ibid, p p 124-125.

⁴⁶ Ibid, p 125.

⁴⁷ Ibid, p p 122-123.

⁴⁸ Ibid, p 123.

⁴⁹ يقصد بها أضرحة الأولياء والمرابطين التي كانت تمثل أماكن محاطة بهالة من القداسة حتى أن المذنبين والمجرمين يلجؤون إليها حيث لا يمكن أن يطالبهم العقاب هناك، لأن المكان موقر لدرجة أن الابن لا يجراً على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه. أنظر: حمدان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص 57.

⁵⁰ Tassy (Laugier de), op. cit, p 123.

⁵¹ Ibid, p 125.

⁵² Ibid, p 9.

⁵³ أنظر التفاصيل في: Peyssonnel (J.A), op. cit, p p 243-256 قائمة المصادر

والمراجع:

- ابن المفتي رجب بن شاوش، تقييداته في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، دراسة وتحقيق فارس كعون، بيت الحكمة، ط1، 2009م.
- حمدان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.
- الشيخ لكحل، المصار الغربية لتاريخ المغرب في العصر الحديث، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة محمد خيضر بسكرة، ع11، سبتمبر 2014م.
- كريخال مارمول، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ج2، 1984م.
- وولف جون. ب، الجزائر وأوروبا 1500م-1830م، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
- Belhamissy Moulay (1990), Alger la ville de mille canons, Entreprise nationale du livre, Alger.
- Berbrugger(A) et Devoulx (A) (1858), Les casernes de janissaires à Alger, R.A, 1858.
- Brahimi Denise (1970), Laugier De Tassy et sa préface à l'Histoire de Royaume d'Alger, R.H.C.M, faculté des lettres d'Alger, N°: 8, janvier, 1970.
- Brahimi Denise (1978), Opinions et regards des Européens sur le Maghreb aux XVII^{ème} et XVIII^{ème} siècle, SNED, Alger.
- Deny Jean (1920), Les Registres de soldes des janissaires conservés à la BNA, R.A, 1920.
- Devoulx Albert, (1872), Relevé des principaux Français qui ont résidé à Alger de 1686 à 1830, R.A, 1872.

-
- Filali Kamel (2005), Les Voyageurs Religieux dans le regard de Laugier De Tassy, en mission à Alger (1725), Revue Emigrations et Voyages, Université Mentouri- Constantine, V1, avril, (2005).
 - Haedo (F.D. de) (1870), Topographie et histoire générale d'Alger", traduction de Monnereau et A. Berbrugger, R A, n: 14, 1870.
 - Michaud (1854), Biographie universelle ancienne et moderne, Nouvelle éditions, Paris.
 - Peyssonnel (J.A) (1987), Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger, présenté par Lucette Valensi, Editions la Découverte, Paris.
 - Société de gens de lettres (1822), Dictionnaire Historique critique et bibliographique, T15, Paris.
 - Tassy (Laugier de) (1992), Histoire du Royaume d'Alger, Préface Noël Laveau et André Nouschi, Editions Loysel, Paris.
 - Turbet-Delof Gey (1973), l'Afrique barbaresque dans la littérature française aux XVI^{ème} et XVII^{ème} siècle, librairie DROZ, Genève.
 - Venture de Paradis (J.M) (2006), Alger au XVIII^e siècle, présentation et notes par Abderrahmane Rebahi, G.A.L Editions, Alger.